

الحلقة الرابعة

.. والتحول إلى الخلافة

كيف تم التحول إلى الخلافة ؟ مع هذا الأمير عبد الرحمن الثالث الناصر الفتى ، والذي تصدر ليتولى مقاليد الحكم دون من هو أولى به منه ، فهناك أبناء الأمير عبد الله ، وما أكثرهم ، ولكن الحفيد الذي كان موضع رعاية له بل ومأثوراً من بين الآخرين ، وكأنه تنبأ بفراسته العربية الأصيلة ، ما لهذا الأمير من سمة تؤهله للحكم ، وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين من العمر ، وكما كان متميزاً واستثنائياً فى مآل الحكم إليه ، كذلك كان متميزاً باستمراره ، بل يُعتبر من أطول الملوك حكماً ، خمسين عاماً من المسؤولية ، بدأت فى (٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) ، وتحولت إلى خلافة عام ٩٢٩ م أى بعد سبعة عشر عاماً ميلادية .

هذا التحول وتلقيبه بأمر المؤمنين وناصر لدين الله ، يرى صاحب « الحلل المشوية » التى كثيراً ما تُنسب إلى « ابن سيماك العاملى » أن مرد التسمية وهذا الاختيار كان استجابة لسكان الأندلس ، فهم الذين طلبوا من الناصر أن يكون خليفة لهم ، وربما وجود خلافة على مقربة من الأندلس فى المغرب وخلافة فى المشرق ، جعلاً هذا المطلب مطلباً طبيعياً يتمشى وواقع العصر آنذاك لقائد برهن خلال سبعة عشر عاماً على جدارته بالحكم وأن يكون خليفة للمسلمين فى هذه البقعة .

لقد بدأ فى جو مشحون بمختلف المعوقات ، ما بين ثائرين مسيطرين على مناطق يمارسون فيها نفوذهم ، وظروف اقتصادية واجتماعية متأزمة ، ولكنه كان من الوعى الذى اقترب به من معاوية مؤسس الدولة الأموية الأولى فى المشرق وسياسة الشعرة التى لا تنقطع ، فقد كان عبد الرحمن الناصر بدوره يتوعد ويمنى ويحذر بين الشد والجذب ، بين المد والجزر ، واستطاع أن يؤمن لقرطبة سيادة

سُلطتها على مختلف المناطق ويُخضع الخارجين لنفوذه إلا ما شَدَّ منهم مكلفاً له مشقات متعددة .

رنعنى به ابن حفصون الذى كان موضعاً مشيراً للقلق فى العديد من العهود ، بل اتخذ كقاعدة له فى التعامل مع السُلطة الخروج عليها ، ولم يكن هذا بغريب على مؤلّد مهتز فى قناعاته الإيمانية ومرتد فى أعماقه ، فارتداده عن الإسلام محاولاً بذلك التقرب إلى النصارى لم يجديه فى شيء ، فالأكل على كل الموائد هو المحروم بذاته ، فلا مائدة له ولا انتماء إلى وفاته مقبوراً سنة (٣١٢ هـ / ٩٤١ م) تاركاً بعد وفاته أبناءً ثلاثاً ، استطاع الناصر كما استطاع مع غيرهم استئصال السُلطة منهم معيداً إلى الأندلس وحدته الأموية محاولاً الاتجاه به نحو قلاع المجد متجاوزاً لبؤر الضياع ، ليس فقط على المستوى الداخلى ، وإنما أيضاً فى علاقاته الخارجية .

فقد كان بحق مروّضاً لمختلف النزعات والانتماءات فى إطار إيقاعى متجانس ما أمكن ، متدخلاً بمرونة واعية ليسوى الخصومات بين العديد من الصفات كالثقاليين والليونيين والبريين ، حيث استطاع أن يستغل ما بينهم من صراعات ليصل إلى إضعافهم جميعاً ، ممكناً لسُلطانه ، بما فى ذلك طبيعة المواجهة مع الشيعة ومطامحهم ، حيث نفذ عبر قنوات فقهية إلى معاقلهم بما فى ذلك مصر ، كمشال الفقيه المالكى المعروف بابن القرطبي وغيره . ممن أرسلهم لتفنيد المزاعم الباطنية بما فى ذلك دعاوى المهدي ، والإمام المنتظر ، باعتبار أن الإسلام يتميز بوضوحه وصراحته إيمانياً وعقائدياً ، حقوقاً وواجبات دون تغميض أو التباس - « فلا عصمة إلا لنبي » - ونبي الإسلام وخاتم الأنبياء هو محمد عليه السلام . قائد على هذا المستوى من الصرامة والتأهيل والممارسة والوعى ، لا بد وأن يؤمّن هذه الطموحات المشروعة بدرع قوى ، يمثله جيش قادر على الدفاع والمواجهة ، برياً وبحرياً على حد سواء ، خصوصاً وأن المواجهة مع الفاطميين الشيعة اكتست بنوع من التداخل وكسب المواقع بين القبائل ، فطموحات الشيعة الفاطميين لم تتجه بهم فقط إلى المشرق ، بل كثيراً ما حاولوا أن يتجهوا بها إلى الأندلس ، مراقبين لما يجرى به من أحداث ، مشيرين للقلق .

وكذلك الناصر بدوره تبنى معهم ما هو شبيه مع الفارق وهو أن أرضية القلوب في المغرب بالنسبة لتقبل التشيع الفاطمي ، توضع عليها علامات استفهام كبرى ، بينما فيما يعنى الناصر ، تكامل القلوب كان تلقائياً ، وهنا ينطبق المثل السائد بالنسبة لعدد من العشائر التي أعلنت ظاهرياً تقبلها للشيعة وكان لسان حالها يردد : « إن كانت سيوفنا معك فقلوبنا عليك » ، والعكس صحيح بالنسبة للناصر : إن كانت سيوفنا عليك ، فقلوبنا معك ، فضلاً على أن استقرارية السُلطة للفاطميين قضية فيها نظر ، فكانت الثورات تشتعل هنا وهناك في تونس والجزائر وغيرها من المناطق التي كان يسيطر عليها الفاطميون ، ومع هذا لا يمكن أن يُنكر ما شيد في « قاهرة المعز » وعلى سبيل المثال لا الحصر : الأزهر .

فإن كان الناصر قد شيد ووحّد وأمن استقرار السُلطة ، وفعل الكثير مما يُحسب له ، فبدوره كما حسبنا على الفاطميين المغالاة في التبطين والمناداة بتقاليد لا تتمشى ووضوح وبساطة الإسلام ، خصوصاً لدى « الغلاة » من فرق الشيعة من أصحاب الدروب المظلمة والعمل المستتر ، فيمكننا أيضاً أن نحسب على الناصر لا له ، رغم عصره المشرق ، هذه المغالاة أيضاً بدورها في المواجهة مع مَنْ يلتقى معه في الدين إلى حد القطيعة وقلب الأحلاف وتحويل الأعداء إلى حلفاء والإخاء إلى عداة ، فكيف يمكن لناصر لدين الله وأمير المؤمنين أن يتحالف على حساب أبناء دينه ، دفاعاً عن سُلطته وتأمينها مع الشيطان ، ولو كان ممثلاً في بيزنطة أو غيرها .

فإن كنا نتقبل معه توطيد علاقته مع الإخشيديين في مصر ، ولكن نضع علامة استفهام كبرى باسم الحاضر في الماضي ، والماضي في الحاضر حينما يدفع الانفعال إلى حد خلط الأوراق وتعظيم المواقف ، ولو كان يؤدي هذا إلى التحالف مع الشيطان ، تعبير فمجده اليوم حين يتردد بين أبناء الأسرة الواحدة ولا نعتقد أن أجدادنا تقبلوه بدورهم حين الوعى بحقيقة أبعاده ، بروح الرضا والانبهار ، فكثيراً ما تنهار الأمم حينما تفتح نوافذها بحثاً عن التهوية وتخفيفاً لثقل المعاناة ، فتحمل إليها هذه النوافذ سموم الاختناق والانحدار .

إن كنا نتقبل من هؤلاء أيضاً - كما نتقبل من المعاصرين - مرونة التعامل مع الآخر بتفهم وفهم وتفاهم بما فى ذلك تبادل السفارات والزيارات ، ولم لا ؟ الهدايا ، ولكن شريطة أن تبقى المقاييس واضحة ، ولا تتجاوز حدود المجاملة وحسن الجوار ، أما حينما ترتقى إلى مستوى التحالف ، وربما التآمر المدمر والمقنّع ، فهذا أمر بغيبض جرّ وما زال يجر علينا الويال ، لقد كان الناصر قائداً معطاءً فيما تبقى من إنجازات سواء فى ميدان الزراعة وتشجيعها ، والتجارة والصناعة ، بل والفنون والأدب ، وحتى العلوم .

فبحق إنه قائد متميز لعصر متميز ارتقى فيه بقرطبة العاصمة ليباهى بها بغداد ، تشييداً وعمراً ، بما فى ذلك مساجدها ، وما جدّد فيها على مستوى البناء ، كمشال « مدينة الزهراء » التى شغلت حيزاً من اهتماماته ، بل ومن ماله ، مما أهل بعض الأصوات لتتصدى (سعيد البلوطى نأخذه كمشال) حين نقده لهذا البذخ وهذه المغالاة . ولقد كان طبيعياً أن يناغم هذا التطور العمرانى ، تطوراً فى إشراق الفكر وعطائه ، فازدهر هذا العصر بعقول متميّزة ، مبدعين كشعراء ونحاة ومؤرخين ، ورياضيين وفقهاء ، وفلاسفة ... إلى غير ذلك من دروب المعرفة والثقافة .

فهذا ابن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ / ٨٦٠ - ٩٤٠ م) الذى له المؤلّف المعروف بـ « العقد الفريد » ، وهو منجم فكرى ، لا يمكن إنكار طابعه المتميّز متأثراً فيه بالمشرق ، فى شكل موسوعى جمع فأوعى ، فى مختلف مناحى المعرفة الممارسة آنذاك ، وهذا ابن هانىء المتوفى فى (٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م) ، وبدوره غنى عن كل تعريف ... وغيره وغيره من الشعراء ، يفخر الأندلس بهم كوجوه مشرقة خلّدت ذكراه عبر العصور ، ولنا إلى ذلك عودة فى حلقة أخرى حين التعريف بقلع المجد ، كذلك عرف الأندلس شعراء كتبوا فى النحو والتاريخ ، كما عرف نحاة ومؤرخين قرضوا الشعر ، نذكر « الزبيدى » ، ومؤرخين من طبقة الرازى .

وهناك مَنْ مارسوا الرياضيات والطب واجتهدوا فيه وإن كان دور الفقهاء والمحدثين ظل كما كان متصديراً ، نخض كمثال إلى جانب البلوطى المشار إليه سلفاً (وهو يُذكر لدى البعض على أنه يجسد الإرهاصات الأولى للمذهب الظاهرى مهدداً الطريق لابن حزم) محمد بن واضح ، وابن أمين ، وقاسم بن أصبغ وغيرهم الكثير ، مما يؤكد لنا الحضور الفكرى المتنوع والذى فتح الباب إلى جانب الفقهاء والأدباء والشعراء والمؤرخين والرياضيين والأطباء لأمثال « ابن مسرة » المتوفى سنة (٣١٨ هـ / ٩٣١ م) وهو شخصية تطرح العديد من التساؤلات وتشكل موضعاً للمناقشة ، ولم لا ؟ التحليل والنقد فى عصره كما فى عصرنا .

تتلذذ على مفكرين فى الأندلس والمشرق ، وتعامل مع التيارات الفكرية فى مختلف دروب العقلنة ، بل اتجه به المستشرق « أنخيل جونثالث بالنتيا » فى كتابه « تاريخ الفكر الأندلسى » إلى أنه أذاع بين مسلمى أسبانيا آراء امباذقليس ، ويرى البعض أنه ليس « امباذقليس » الحقيقى ، وإنما « امباذقليس » مزيف ، وكانت أفكاره خليطاً من الغنوصية التى قالت بها الأفلاطونية الحديثة . وانتشرت أفكاره آنذاك حتى بعد وفاته وأثارت ردود فعل مختلفة ، ينقل البعض أنها وصلت إلى حد محاربتها من فوق منابر المساجد والدعوة إلى الابتعاد عنها ، ومع هذا بقى ابن مسرة موضعاً للتساؤل وإسهاماً يطرح أكثر من استفهام سواء فى نشأته أو انتمائه الفكرى وغايته .

ولا يمكن عزل ابن مسرة عن البيئة التى ترعرع فى أحضانها ، فقد كانت بيئة تشجيع وانفتاح واستيعاب للمعارف والفنون ، فهذا الناصر نفسه بمكتبته العامرة بكتب من العراق والشام وأوروبا ومصر ، دليلاً متميزاً وواضحاً يؤكد المستوى المتصدر الذى بلغته حضارة الأندلس فى عصره ، حيث تعيش الالتزام ممثلاً فى الأصوليين فقهاء ، ومحدثين ، مع الأدباء والمبدعين فى الفنون والمجتهدين فى فكر الإنسان وعلومه ، بما فى ذلك يهود الأندلس وقد كانوا يجالسون الخليفة نفسه .

وقد سمحت هذه الروح المرنة وهذا التسامح السخي ببداية الدراسات التلمودية فى أسبانيا ، وإقلاع المساهمة اليهودية على حسب طريقتها وغايتها فى حضارة الأندلس ، ونقل روائعها فى مراحل تالية إلى اللاتينية والعبرية ، وهذه قضية إن كانت تُسجّل لحضارة الإسلام بمداد من فخر ، لما كانت تتحلّى به من تسامح وإنسانية ، فهى تسجل أيضاً بدورها مدى إسهام هذه الحضارة الأندلسية فى إرهاصات النهضة الأوروبية الحديثة عبر قنواتها اللاتينية .

لقد كانت وقفتنا فى هذه الحلقة التى خصصناها للناصر وما حوله ، متجانسة مع ما غطاه عصره كما وكيفاً من عطاء وإشراق وتأسيس واستقرار ، إلى حد أنه وُصفَ على أنه يجسد عصرأ من العصور الذهبية فى حضارة الإسلام ، واستمر موكب الخلافة ، فلن يتوقف الزمن ولكنه قد يتحوّل إلى زمن سابق لزمانه ، أو إلى زمن متراجع عن زمانه ، فماذا عن زمن الخلافة بعد هذا الناصر ؟ هذا ما سنتناول عرضه والتعرض له فى الحلقة التالية .

* * *